

السلطة والمذهب في إسطوغرافيا المغرب الإسلامي الوسيط من خلال كتابات
القاضي النعمان الإسماعيلي (ت. 636هـ/974م)

**Authority and Doctrine in the Medieval Islamic Maghreb's History
through Writings Al-Qādī al-Nu'mān al-Ismā'īlī
(d. 636 AH/974 AD)**

أ/ خير الدين قجوح

ماجستير تاريخ وسيط

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة - الجزائر.

الملخص:

نتطرق في هذا المقال إلى جوانب من البيئة التي عاش فيها القاضي النعمان (ت. 363هـ/974م) مع ترجمة لسيرته والتعريف بآثاره العلمية، وذلك بهدف الكشف عن الملامح الرئيسية سياسية ومذهبية وعلمية لعصره للوقوف لاحقا على مدى تأثيرها على كتاباته التاريخية.

عاصر النعمان مرحلة هامة من تاريخ المغرب الإسلامي برزت فيها تغيرات سياسية ومذهبية وشهدت حركة ثقافية كبيرة ، فقد نجحت الدعوة الشيعية الإسماعيلية في تأسيس الدولة الفاطمية في نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، والتي اعتمدت على نخبة من الدعاة والمفكرين في تثبيت وجودها وبث مشروعها، ولا يخفى أن النعمان واحد من أهم رجالها فقد تدرج في عدة مناصب في هرم السلطة وربط علاقات متينة مع كثير من الخلفاء الفاطميين ، كما ساهم بقدر وفير في التأسيس للفقهاء الإسماعيلي ، كان لكل ذلك تأثير على تكوينه شخصيته من جهة، وعلى انتاجه الفقري والتاريخي من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: القاضي النعمان؛ السلطة الفاطمية؛ المذهب الإسماعيلي؛ الكتابة التاريخية.

Abstract :

In this article, we deal the environment where Al-Qādī al-Nu'mān al-Ismā'īlī (died 363 AH/974AD) has lived in addition to interpreting his biography and acknowledging his scientific works, so as to explore the main profiles of his era politically, scientifically and doctrinal, to see its aftermath on his histoghraghy.

Al-Qādī al-Nu'mān al-Ismā'īlī live an important historical period of the medieval maghreb history during which political and doctrinal changes, the Ismaili Shiite da'wa succeeded in establishing the Fatimid state at the end of the third century AH / 9th century AD, which relied on a number of preachers and thinkers to establish its presence and broadcast its project. It is no secret that al-Nu'mān is one of its most important men. With many of the Fatimid caliphs, also contributed to the abundant foundation of the Ismaili fiqh. all this had an impact on his personality and his historical and on his jurisprudential productions.

Keywords : Al-Qādī al-Nu'mān al-Ismā'īlī, history, Medieval Islamic ;Maghreb.

مقدمة:

شهدت الدراسات الإسماعيلية تطورا كبيرا في العقود الأخيرة من القرن الماضي تماشيا مع الظهور التدريجي لنصوص إسماعيلية جديدة ومجموعات المخطوطات في اليمن وسورية والهند(1)، الأمر الذي أدى إلى تزايد أهمية هذا النوع من الدراسات التاريخية التي كانت إلى وقت قريب تعتمد أساسا على مؤلفات المؤرخين من خارج الجماعة الإسماعيلية (2). هذا التحول على مستوى تلك الدراسات أدى إلى ضرورة إعادة الحفر في النصوص التاريخية الإسماعيلية القديمة أو التي ظهرت حديثا على حد سواء لأجل تسليط الضوء أكثر على جوانب عديدة من الفكر الإسماعيلي وتاريخهم لاسيما في المرحلة المبكرة التي اكتنفها الكثير من الغموض والمرحلة المغربية التي تأسست فيها الدولة الفاطمية وحكمت مجالات واسعة من المغرب الإسلامي.

من هنا تأتي ضرورة دراسة الإسطوغرافيا الإسماعيلية (3) لتلك الفترة بتوظيف آليات التنقيب في التراث الإسماعيلي ورصد كتابات المؤرخين لإبراز الجوانب الفكرية والتاريخية للنشاط الإسماعيلي، تلك الكتابات التي اكتسبت أهميتها من المكانة التي تبوأها النخب المثقفة في دواليب السلطة الفاطمية ودورها في متابعة الأحداث والوقائع السياسية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتتبع ظواهرها وتطوراتها المختلفة وتدوينها.

في هذا السياق تبرز كتابات مثقف الجماعة الإسماعيلية (4) القاضي النعمان (ت.363هـ/974م) الذي خلف إنتاج غزيرة تعددت موضوعاته وانتشرت بانتشار الخلافة الفاطمية، إذ كان لمصنفاته صدى واسع في الأوساط الشيعية عموما والإسماعيلية على وجه الخصوص، كما أن المتأمل في مؤلفاته وطبيعة موضوعاتها ومدى الانتشار الذي حققته آنذاك، يلتبس بوضوح الجهد الكبير الذي بذله المؤلف والشهرة الواسعة والمنزلة الرفيعة التي نالها في المرحلة المغربية من عمر الخلافة الفاطمية التي كانت بحاجة لتثبيت أركانها ونشر مشروعها في وسط مشبع بالعداء للمذهب الإسماعيلي.

أولا: القاضي النعمان المؤرخ الفاطمي:

نظرا لندرة المعلومات المتعلقة بالمراحل المبكرة من حياة القاضي النعمان فإننا لا نكاد نجد له ترجمة وافية توضح لنا تفاصيل حياته وعلاقته بالفاطميين على حد تعبير المؤرخ فرحات الدشراوي (5)، لكنه ذكر في مؤلفاته عبارات متناثرة عن نفسه مكنتنا من القاء الضوء على سيرته وخدمته للفاطميين.

1. اسمه ونسبه وكنيته:

يتفق أغلب الباحثين على غموض نشأة القاضي النعمان والتباسها؛ فقد اختلفوا ليس حول تاريخ ومكان مولده فقط؛ بل وحتى في تسميته عند بعض المؤرخين (6).

هو النعمان بن أبي عبد الله بن محمد بن منصور بن حيون حسب أغلب المصادر (7)، وقد لقب في المصادر الإسماعيلية بسيدنا "القاضي النعمان" (8) وهو لقب يدل على المنصب الذي تولاه في القضاء، وكذلك تميزا له عن أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (ت.150هـ/767م) مؤسس المدرسة الفقهية الحنفية (9)، وهناك من يضيف إلى لقبه هذا القاب أخرى مثل: القيرواني (10)، سيدنا القاضي وسيدنا الأجل، أبو حنيفة الشيعي (11)، ابن محمد الداعي (12)، ابن الفياض (13)، المشرع الإسماعيلي (14) وغيرها.

يشير تعدد الألقاب والكل إلى المكانة العلمية والحظوة الاجتماعية التي تمتع بها القاضي النعمان، وهي كذلك حسب الباحث إسماعيل سامعي لم تأت صدفة بل فرضتها شخصيته القوية وسعة علمه وغزارة انتاجه المعرفي (15)، كما أن نسبته "التميمي" ترجع أصله العربي رغم عدم اتفاق المصادر (16)، ومن الواضح أيضا أن "القيرواني والمغربي" يحيلان إلى المنطقة التي ولد فيها وقضى جل حياته فيها.

2. مولده:

لم ينص أحد من المؤرخين على تاريخ ولادة القاضي النعمان صراحة (17) ، لذلك عمد الباحثون إلى التخمين والتقريب ، فقد قدرة بعض الباحثين بأنه كان سنة 259 هـ / 873 م ، في حين يذهب أصفي فيضي انه ولد سنة في العشر الأخير من القرن الثالث الهجري (18) ، بينما قدر محققو كتاب المجالس والمسائرات ولادته بين سنتي 283. 290 هـ / 896. 902 م ، استنادا إلى نص ذكره النعمان في كتابه " المجالس و المسائرات " قال فيه: " وخدمت المهدي بالله من أواخر عمره تسع سنين وشهورا وأياما " (19) ، ولما كان المهدي هو أول الخلفاء الفاطميين (ت. 322 هـ / 934 م) يكون بذلك تاريخ بداية خدمته إياه في أواخر عام 312 هـ / 924 م في عمر تؤهله للخدمة ، ومن العسير تحديد ذلك بدقة ، وإذا افترضنا ان عمره آنذاك كان عشرين سنة تكون ولادته في حدود سنة 292 هـ / 904 م ، أما الباحثة سلم محمود إسماعيل فقد توصلت إلى نتيجة مفادها أنه " مهما يكن من أمر فليس لدينا دليل واحد بصدد تحديد قاطع التاريخ مولده ، ونتحفظ فنقول أنه ولد أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي " (20) ، وهو الرأي الذي نميل إليه في ظل غياب الدليل الذي ينهي الخلاف. كما لا يعرف مكان ولادته أيضا فباستثناء الزركلي الذي أكد أنه ولد بمدينة القيروان (21) وهو الأرجح حسب ما نرى ، فقد شكك باحثون معاصرون في ذلك بتساؤلهم هل كان إفريقي النشأة يسكن القيروان أو إحدى مدن إفريقية ، أم كان من الوافدين (22).

3. مناصبه:

تدرج القاضي النعمان في العديد من المناصب في ظل الخلافة الفاطمية أهمها:

أ. الوراق :

دخل القاضي النعمان في خدمة الدولة الفاطمية في فترة مبكرة من حياته فخدم المنصور أيام الخيفة المهدي (23) ، ثم خلال طيلة عهد القائم فكان يورق له ويجمع الكتب فيغدق عليه المنصور بإحسانه (24) ، وقد أشار إلى هذه المهمة بقوله: "وكانت له على من النعم والالاء ما لا احصي عددها ، وكانت خدمتي اياه في جمع الكتب له واستنساخها " (25) ، وقد وصف بعض الباحثين هذه المهمة بأنها بمثابة أمين المكتبة (26) إلا أننا لم نجد ما يثبت ذلك في المصادر.

ب - خطة الخبر:

يطلق عليها أيضا نقل أخبار الحضرة (27) ، وقد أبدى الفاطميون اهتماما خاصا بها ويبدو أن إختيار النعمان لهذه المهمة لم يكن صدفة حسب بعض الباحثين بل جاء بعد دراسة وتثبت من شخصيته التي تؤهله لهذا المنصب (28) ، فقد عمل القاضي النعمان في مهنة نقل أخبار الحضرة في أواخر عهد الخليفة المهدي (297-322 هـ / 909-934 م) (29) ، واستمر حتى في عهد الخليفة الثاني القائم بأمر الله (322-334 هـ / 934-945 م) (30) ، غير أنه لا يعطينا أية اضافة أو توضيح حول طبيعة هذه المهنة التي يرى البعض أنها تمثل في جمع تقرير شامل عن أحوال البلاد وما جرى فيها من شؤون مختلفة ورفعته إلى الخليفة ليسهل عليه أمر تسيير الدولة (31).

ج. القضاء:

كان القاضي النعمان أول من تم تولى القضاء للفاطميين بالمغرب (32) ، فقد استقصاه المنصور بالله قبل أن يعلن رسميا عن وفاة والده القائم بالله سنة 334 هـ / 945 م فقد كتم خبر وفاة والده عن الرعية لمدة سنتين لانشغاله بثورة أبي يزيد مغل بن كيداد (33)، وقد أشار القاضي النعمان إلى تعيينه فقال : " ... فلما قبض الله القائم صلوات الله عليه استقصاني قبل أن يظهر أمره وكنت أول من استقصاه من قضاة ... " (34) ، ويصف النعمان مالمقيه من الخليفة المنصور بالله في هذه المرحلة بقوله : " ... أعلى ذكرى ورفع قدرى وانعم علي من النعم بما لو أخذت في وصفه لقطع طوله ما أردت ذكره فلم تكن قبله على نعمة أعظم من نعمته " (35). تولى النعمان قضاء طرابلس بين سنتي 334. 337 هـ / 945. 948 م ، وبعد القضاء على ثورة أبي يزيد مغل بن كيداد أعلن المنصور على وفاة القائم وارتقى لعرش الخلافة سنة 336 هـ /

945م ، وبعد أن تم بناء العاصمة الجديدة المنصورية (36)، كان النعمان أول من ولي قضائها وقضاء سائر مدن إفريقية وأعمالها مع حق تعيين القضاة في مجال حكم الفاطميين بعدما كتب له المنصور عهدا بذلك سنة 337 / 948 م ، وأحاطه بكل مظاهر التكريم (37).

4. مؤلفاته:

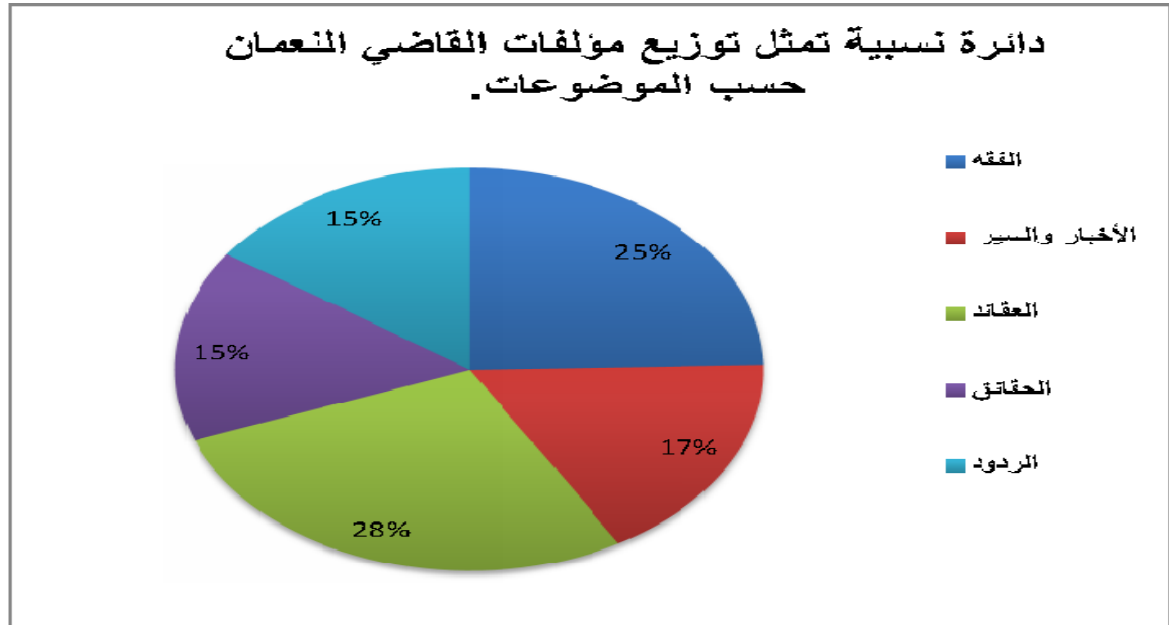
لاتزال كتب القاضي النعمان حتى يومنا هذا أقوى الكتب لدي الاسماعيلية كما أصبحت كتبه التي ألفها عمدة كل باحث في المذهب الاسماعيلي والأصل والأساس الذي يستقي منه علماء المذهب (38)، وقد أفاد الدعوة الإسماعيلية بكثرة مؤلفاته التي لم تقتصر على مجال واحد بل تعددت في مختلف نوع المعرفة فكتب في الفقه والمناظرة والتأويل والعقائد والسير والتاريخ والوعظ ، وقد قيل عنها انها الذخيرة الحية ، والتراث المعبر عن حقيقة الدولة الفاطمية (39) ، وكما قال ابن خلكان : " ألف لأهل البيت من الكتب آلاف الأوراق بأحسن تأليف وأملح سجع" (40)، لكن عددا مهما من هذه المصنفات التي اختلف الباحثون في عددها وأسمائها وصحة نسبها اليه (41) لم تصلنا فقد ضاع قسم وعموما يمكن تقدير عدد مصنفاته بحوالي خمسين كتابا أو تزيد قليلا عن ذلك حسب عدد من الدارسين وسنذكر هنا أهمها مصنفة حسب مواضيعها:

- أ. مصنفات فقهية: كتاب دعائم الاسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله ، كتاب الإقتصار ، كتاب الايضاح ، مختصر الآثار فيما روي عن الأئمة الأطهار ، القصيدة المنتخبة ، الأخبار في الفقه.
- ب. مصنفات في الأخبار السير: إفتح الدعوة وابتداء الدولة، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، المجالس والمسائرات، المناقب والمثالب ، معالم الهدى، سيرة الأئمة، رسالة المرشد الداعي إلى تربية المؤمنين ، الأرجوزة المختارة.
- ج. العقائد: كتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة ، مفاتيح النعمة ، كتاب الدعاء ، كيفية الصلاة على النبي ، كتاب عبادة يوم وليلة ، التعقيب والانتقاد، الحلى والثياب ، الشروط ، منامات الأئمة، الرؤيا ، التشريع والتصنيف، أجوبة القاضي النعمان ، الرسالة المذهبية، الإمامة، التقريع و التعنيف ، إثبات الحقائق في معرفة توحيد الخالق ، كتاب البسملة ، التشريع والتصنيف.
- د. الحقائق: تأويل الدعائم ، أساس التأويل ، التوحيد ، كتاب الراحة والتسلي ، تأويل الشريعة، شرح الخطب التي لأمر المؤمنين ، تأويل القرآن ، ذكره ابن حجر في لسان الميزان، شرح الخطب التي لأمر المؤمنين، السبيل إلى معرفة علم التأويل ، تأويل الرؤيا.

هـ. مصنفات في الردود على المذاهب والفرق المخالفة:

كتاب اختلاف اصول المذاهب، الرسالة المصرية في الرد على الشافعي، الرد على أحمد بن سريح البغدادي، ذات البيان في الرد على ابن قتيبة الدامغ الموجز في الرد على العتكي ، الرد على الخوارج ، كتاب فيما رفضته العامة من كتاب الله وانكرته، الرد على أبي حنيفة ، الرد على الشافعي ، الرد على مالك.

هذا وقد حاولت الوقوف على نسبة الكتابات التاريخية للقاضي النعمان بالنسبة لكتابات في الموضوعات الأخرى في الدائرة النسبية التالية:



نلاحظ من خلال الدائرة النسبية أن أكبر نسبة من كتابات القاضي النعمان تمثلت في موضوعات العقائد ولفقه والحقائق وهو أمر طبيعي باعتباره الفقيه الإسماعيلي الأول وواضع أصول الفقه الإسماعيلي، كما أن الكتابات التاريخية الممثلة في موضوعات الأخبار والسير شغلت نسبة هامة من كتاباته وهو ما يترجم جهوده في تدوين الكثير من الأخبار عن مراحل مهمة من التاريخ الإسلامي عامة والمغربي على وجه الخصوص.

بعد استعراضنا لمصنفات القاضي النعمان يمكننا أن نلاحظ أن هناك خلطا كبيرا والتباسا في حصرها ونسبتها إليه، وحسب تقديرنا فإن ذلك قد يعود إلى احتمالات منها أن بعض المؤلفات هي عبارة عن قطع مستقلة من كتب أخرى له لذلك وقع الخلط، أو أن بعض الكتب قد نسبت إليه لتكتسب مكانة لدى الإسماعيليين استنادا إلى مكانته هو، وهذا الأمر ليس غريبا في العصور الوسطى، أو إلى الغموض المعروف عن الفرقة الإسماعيلية.

ثانيا: علاقة القاضي النعمان بالسلطة الفاطمية وتأثيراتها على كتاباته:

عاصر النعمان الخلافة الفاطمية في المغرب ، وفترة قصيرة منها في مصر، وتعود بدايات تدرجه في سلم السلطة الإسماعيلية إلى خدمته للخلفاء الفاطميين الأربعة بدءا بالمهدي (42) في أواخر حياته كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، لكن لا تتوفر لدينا معلومات دقيقة عن طبيعة تلك الخدمة ولا عن العلاقة التي كانت بينهما (43)، بعدها اتصل بالخليفة القائم بأمر الله طول مدة حياته وتولى في عهده منصب قضاء مدينة طرابلس الغرب ، ثم علت منزلته في عهد المنصور إذ جمع بين الصلاة بالناس في الجمعة والخطابة في جامع القيروان ، والدعوة والقضاء (44) ، وخاطبه الخليفة المنصور قائلا: "لو اتسع لي أن أجلسك بين يدي في مجلس داخل قصري لكان ذلك أعجب لي: فإذا كان ذلك لا يمكن فاجلس في سقيفة قصري فإنه أحق موضع أقيم فيه الحقوق ونفذت فيه الأحكام" (45).

في عهد المعز لدين الله (342هـ - 365 هـ / 953 م - 976م) تجاوز النعمان مهام منصبه الرسمي "قاضي القضاة" ، إلى أبعاد أخرى كالتأصيل الفقهي للمذهب الإسماعيلي وبسط دعوته ، وتدوين أحداثها ، وتسجيل أمجادها و تطوراتها ، مما جعل منه أحد الركائز الأساسية للنظام الفاطمي و أحد أكبر رجالاته (46).

وصلت منزلته لدى الفاطميين إلى حد أنه تم تبني كتابه " الدعائم " على أنه " القانون والمرجع الرسمي للفقه عند الفاطميين في القاهرة " (47) ، وما ذاك إلا إشارة هامة إلى مكانة الشخص من ناحية وإلى مدى قرينة من السلطة الفاطمية من جهة أخرى.

لعله من اليسير جدا التوصل إلى المكانة المرموقة التي حظي بها القاضي النعمان لدى الحكام الفاطميين ، واستنتاج العلاقة المتميزة التي جمعتها بجميع الحكام الذين عاصروهم ، فهو أمين سر الدعوة في مرحلة الظهور ، فما مدى تأثير هذه العلاقة على كتاباته التاريخية ؟ وهل فعلا كان النعمان بمثابة " مؤرخ ويسعي " للدولة الفاطمية ؟ يذكر أحد الباحثين أن الفاطميين وضموا التاريخ الإضفاء هوية جديدة على المغرب تتماشى والسياسة الفاطمية " (48) : وقد أنتجت هذه العملية بشكل مباشر كتابات تاريخية تصور بطولات الخلفاء الفاطميين وقادتهم ، وتجعل منهم صانعين للتاريخ ومحركين لعجلته.

وبما أن المراحل الأولى لقيام للدولة طرحت عدة إشكالات ناجمة عن طبيعة المرحلة السرية التي سبقتها فقد كان لزاما على المؤرخين الفاطميين السعي إلى للتأصيل التاريخي لدولتهم في المغرب ، على عكس التنظير الفلسفي الذي إنتعش خلال فترة الدعوة في المشرق ، فانجر عن ذلك امتزاج التاريخ بالإيديولوجيا والتوجهات السياسية ، خدمة للمشروع الفاطمي (49).

تماشيا مع ذلك تبرز كتابات القاضي النعمان في صدارة الكتابات التي تصدرت للتأريخ للدعوة الإسماعيلية و قيام الدولة الفاطمية ، فنصوصه تعد نصوا أولية هامة جدا في هذا المجال، ومن خلال تتبعنا للحظات التاريخية الحاسمة من التاريخ الفاطمي ، نلاحظ أن إعادة نسج حوادثها التاريخية لاحقة تم وفق "نسق مريب" (50) على يد مؤرخين محسوبين على السلطة ، مما يشير إلى حرص الفاطميين على توثيق عرى الدولة عن طريق إعادة تسجيل التاريخ بطريقة تعطيهم الأحقية في تولي الحكم، وبذلك تجاوزوا مرحلة الاكتفاء بمجرد سرديّة الحوادث التحقيق إلى عملية توظيفها أهداف محددة مسبقا (51).

نلمس في كتابة التاريخ الفاطمي انطلاقا من الرواية الإسماعيلية مع القاضي النعمان، ملامح التوجه الرسمي، فمن خلال كتابه "افتتاح الدعوة" يتبين لنا سعيه لتعظيم شأن الدولة الفاطمية، بسرد " الفتوحات الإسماعيلية " (52)، في محاولة منه لرصد منجزات الدعوة في سياق أدب الفتوح عن طريق إعادة تشكيل الحادثة التاريخية لتساير الوضع الجديد الذي آلت إليه الدعوة وهو قيام الدولة.

يرجع النعمان الى بواكير الدعوة الإسماعيلية التي شهدت بدايات التأسيس للشرعية منذ لقاء الإمام مع ابن حوشب (53) ، ففي اشارته لتحول هذا الأخير من الاثنا عشرية إلى الإسماعيلية تبدو تزكية الإمام لذلك بطريقة غير مباشرة (54) ، وتبرز في نفس الوقت دقة المؤلف في توجيه اهتمامات المتلقي نحو مسائل بعينها لتصل رسالته بكل سلاسة.

بعدها يرسل الإمام أبا عبد الله الشيعي الى ابن حوشب ليتلمذ على يديه لان ابن حوشب حقق نتائج جيدة نسبوية لصالح الدعوة في اليمن، تسير الرياح بما تشتهي سفينة الدعوة فيلتي الداعي بحجاج كتامة ، يتساءل الباحث طيفوري حول هذا اللقاء هل كان صدفة أم أنه مرتب تلقا ؟ ثم يخلص إلى أن وجود شيعة مغاربة مع وفد حجاج كتامة يدل على الأخبار كانت تنتقل عبر الدعوة إلى ابن حوشب فالإمام وهو ما يثبت أن اللقاء أعد له مسبقا (55).

بعد وصوله إلى المغرب تمكن الداعي من التغلغل في الأوساط الكتامية ، وقد وصف القاضي النعمان براعته في تحقيق ذلك منذ أول إتصال له بشيوخ كتامة لغاية تحوله الى قائد سياسي وعسكري (56)، وطبعا كانت كل الظروف تساهم في تحقيق أهدافه . حسب نفس الرواية دائما .مع حسن تقديره للمواقف واتخاذ القرارات في المكان والزمان المناسبين ، وقد يكون وراء ذلك إشارات إلى نتائج التقيد بتعليمات الإمام التي أدت إلى نجاح توفيق الداعي في أداء مهامه.

مثلت الرواية التاريخية لرحلة الإمام الإسماعيلي من سلمية إلى بلاد المغرب عنصرا هاما في عملية إكساب السند التاريخي للدولة (57)، فقد تلقى المهدي إشارات الرحلة قبل القيام بها بمدة على يد الإمام الذي قبله حين قال له " إنك ستهاجر بعدي هجرة بعيدة ، وتلقي محنة شديدة " (58) ، وكأن النعمان يريد وضع المتلقي في سياق الرحلة قبل سرد تفاصيلها ، فبالفعل تكون الرحلة وهي بعيدة. إلى بلاد المغرب. ويتلقى فيها الإمام صعوبات شديدة.

إن التقديم لرحلة الإمام بهذه النبوءة ينطوي على عبقرية النعمان في محاولة إضفاء شرعية على لدولة الفاطمية إذ أن بشارات الأئمة متحققة لا محالة ، بل أن الحوادث التاريخية تبني التساير تلك البشارات حتى أن كل الظروف توافق لصالحها ففي لحظة حاسمة منها ينكر عامل الرملة (59) رؤيته للمهدي (60)، في إشارة من النعمان إلى العناية الإلهية التي ظلت ترافق الامام طوال الرحلة فتمكن من اجتياز كل المصاعب ، فهاته الرحلة منعرج حاسم في التاريخ الفاطمي إذ أن نجاحها تلتها فتوحات لاحقة كللت بتأسيس الدولة ، لذا فإن سياقها التاريخي صنع بتقدير إلهي كما يفهم من نصوص النعمان لصالح الأئمة والدعاة من خلال تسخير عنصر الزمان والمكان في خدمتهم " وكان ذلك من صنع الله لأوليائه " (61).

صور النعمان دخول الداعي إلى القيروان على إثر انتصاره على الأغلبية ، على أن الأمر جرى في استقبال حافل من شيوخها " وخرج شيوخ القيروان وفقهاؤهم لتلقي أبي عبد الله فلقوه وسلموا عليه ، وهنؤوه بالفتح " (62) ، مما يوحي بالقبول الذي لقيه الإسماعيليون في بلاد المغرب عموما و في حاضرة القيروان خصوصا ، إذ وصفوا للداعي سوء حال الأغلبية معهم ، وكأنهم كانوا ينتظرون "الفتح الإسماعيلي" ليتخلصوا منهم.

إنطلقت أولى خطوات تأسيس الدولة الفاطمية عقب إستقرار الداعي بالقيروان حين نادي فيها بالأمان التام، وأخرج العمال إلى البلدان، وأخذ في محاربة الفساد والمفسدين " فأمنت السبل ومشيت السيارة وخاف أهل الأذى ... واستوت الأمور اعتدلت واشتدت المملكة وقويت " (63).

بعد أن استقرت الأوضاع نسبية عين الداعي على القضاء محمد بن عمر المروروذي (64) " وكان له تشيع قديم ونظر في الفقه من قول الأئمة (ع م) وجعل اليه توليته إياه القضاة والحكام بسائر البلدان " (65) في إشارة منه إلى وجود شيعة قديم في المنطقة وخصوصا لدى نخبة القضاة والعلماء والفقهاء ولا أستبعد أن يكون ذلك قد داء في سياق من جذور الدولة الفاطمية في المنطقة حتى لا يبدو أن وجودها ووجود المذهب الشيعي يعد بمثابة جسم غريب عن مجال المغرب الإسلامي.

إستمر القاضي النعمان بعدها في وصف حال الفاطميين بلسان دعائي واضح نلاحظه في قوله: " وهم في ذلك على حالهم من التواضع والكفاف إلا فيما يقوون به على الجهاد من الخيل والسلاح والعدة فإنهم كان لهم من ذلك مالم يكن لأحد مثله " (66) ، و على نفس النسق يصف دخول الإمام إلى إفريقيا بأنه تحقيق للبشائر التي كان قد أخبر الداعي بها " هذا مولاي ومولاكم وولي أمركم وإمام هديكم ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر قد أظهر الله أمره كما وعده وأيد حربه وجنده " (67) ، ويضيف " وأقبل المهدي في أنصار دولته واحتفال عساكر أوليائه كبدر التمام وسراج الظلام " (68). ولم يفوت فرصة الإشادة بحسن تدبير أوائل الحكام الفاطميين في بدايات إنتصاب الدولة الفاطمية حيث إعتمدوا على الدعاة والمخلصين في تسييرها بينما تفرغوا هم إلى إرساء قواعدها: "ودون الدواوين ، وأمر باقتضاء واجب الأموال ... وكان مع ذلك لا يضيع أُل شيء من المال ولا يستهين به أن يذهب، ولا يترك منه واجبا أن يصرف في غير حق وتلك شيم الأئمة " (69).

طرحنا مسألة انتقاء المواضيع التي دارت حولها كتابات النعمان عدة تساؤلات إذ كيف للنعمان أن يفصل وبدقة بالغة في بعض الحوادث والمواضيع ، في حين يتغاضى عن البعض الآخر أو يقزمه في شكل اشارات سرعة عابرة على الرغم من أهميته ؟ فنجدد بعالج حيثيات الدعوة الإسماعيلية ويتعايش مع انتصاراتها ويحتفي بها و يربطها بإرادة الله وتوفيق الأئمة

، وبغض النظر عن عثراتها ، ويعرج قبل ذلك على مرحلة الستر ، والصراع القرمطي الفاطمي سريعا ودون تفاصيل كثيرة (70).

اختار النعمان في الغالب مواضيع دقيقة تصب في منحنى خدمة التوجه الفاطمي الرسمي ، فهي من ناحية قضايا محورية بالنسبة للإسماعيليين ومن ناحية ثانية تلقى رواجاً لدى السكان المحليين ، على غرار أحاديث التبشير بالمهدي وقد خصص كتاباً كاملاً لذلك شمي "معالم المهدي" ، وكذا روايات عن سير آل البيت ومناقهم كما في " المناقب والمثالب " و " شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار ".

غير أنه وعلى الرغم من أن قضية النسب مسألة هامة جداً للإسماعيليين ، كونها تشكل أساس دعوة الفاطميين ، ولها علاقة بالإمامة إلا أنه لم يركز عليها كثيراً في كتاباته التاريخية ، ولم يعالجها بالشكل الكافي ، فكان يذكر النسب في سياق حديثه مثبتاً إياه دون إثارة مشكلاته ، فعن المعز يقول : " فأمر المؤمنين صلوات الله عليه نجل جعفر و سليله ، ونسل رسول الله (ص) وولده ، وهم كما قال الله عز وجل : ذرية بعضها من بعض " (71)، ويمكن أن يعود ذلك لأحد السببين أما أن الأمر محسوم بالنسبة إليه لذا لم يرد النبش فيه ، أو أنه لا يمتلك الأدلة الكافية لإثباته خصوصاً مع الغموض الذي ميز هذه القضية والاختلافات الكثيرة التي حدثت بين المؤرخين حولها.

هذا وقد ألمحت الباحثة وداد القاضي إلى الطريقة التي تناول بها النعمان حادثة مقتل الداعي أبي عبد الله على يد المهدي ، فبعدما كان يصفه بأحسن الصفات فهو الرجل الحكيم الشجاع الذي جاءت على يده عدة فتوحات ، وبعد قتله من طرف المهدي ، صار هو وأخوه مسؤولان عما حدث لها ، فهما يستحقان ذلك نظراً لما قاما به ، وقد تساءل أحد الباحث طيفوري قدور عن سبب تركيز القاضي النعمان على العباس أخو أبي عبد الله وحمله القسط الأكبر من المسؤولية ، هل يعود ذلك إلى براءة الداعي ؟ أم أن النعمان لم يرد أن يسيء كثيراً إلى صورته ليحافظ على بريق الدعوة ؟ توصل الباحث أن القاضي النعمان كان يعتمد غض الطرف على بعض الحوادث التي قد تساهم في الطعن في التاريخ الفاطمي (72).

إضافة إلى كل ما سبق فإن نظرة القاضي النعمان للخلفاء الفاطميين ومكانتهم عنده التي تتجاوز كونهم خلفاء وحكام عاديون فهم الأئمة أصحاب الزمان ، يبدو أن تلك النظرة حملته على المزيدة في مدحهم والثناء عليهم ، والمبالغة في أحيان كثيرة في الأخبار المتصلة بهم ، ففي خبر تحت عنوان "الخضر مع الإمام الباقر" ، يذكر أن الإمام محمد الباقر (73) إلتقي مع الخضر عليه السلام في مكة (74) ، كما ذكر أيضاً أن جعفر الصادق تنبأ بأن يكون المغرب هو مكان ظهور المهدي وذلك منذ أيام بني أمية "وتطلع رايات المهدي من هاهنا ، و أومى بيده إلى المغرب" (75)، وأورد كذلك في خبر آخر بعنوان " المهدي هو الفاتح للقسطنطينية " أن الرسول تنبأ بأن فتح القسطنطينية سيكون على يد إمام من ذرية علي وفاطمة (76) ، وفي كتابه المجالس والمسائرات جاء على لسان المعز خبر غريب يفيد بأن الله عز وجل لما خلق آدم عليه السلام نظر فرأى في ساق العرش مكتوب لا إله إلا الله ، أيده بعلي وأورثته به (77).

كذلك في مقابل دفاعه عن سياسات الفاطميين وتصرفاتهم ، فإن القاضي النعمان لم يتوان في الهجوم على خصومهم والرد عليهم ، فقد كرر في عديد المناسبات قضية اتهام بني أمية باغتصاب الخلافة وأحقية آل البيت بها (78) ، كما وصف مروان بن الحكم (79) بصفات مشينة واتهمه بسبب علي : " وكان مروان اللعين يسب علياً صلوات الله عليه على المنبر وينال منه " (80) ، أما ابنه عبد الملك بن مروان (81) فلم يسلم هو الآخر فقد قال عنه : " وقيل : إنه ربما مرت الذبابة بفیه فتسقط لشدة ورائحته " (82) ، وفي هذا نلاحظ أن القاضي النعمان تجاوز الهجوم على ممارسات وأفعال خصوم الفاطميين إلى الهجوم على أشخاصهم وهو ما يؤكد إنحيازه التام للسلطة الفاطمية وتسخير قلمه للنيل من أعدائها ، كذا فقد وصف خصوم الفاطميين من حكام الأندلس : بأنهم "طواغيت" (83) ، وأنهم " عدو جدنا محمد (صلع) . وحر به وعناؤه وطرده وحزب الشيطان وجنوده " (84) ، في حين يركي الفاطميين بقوله : " ونحن حزب الله وحزبه كما وعد الغالبون ، وحب رسول الله وذريته المطهرون " (85). غير بعيد عن السياق السابق فقد أورد القاضي النعمان بعض النصوص التي

توضح علاقته بالسلطة الفاطمية وتأثيرها على كتاباته ومن ذلك مثلاً ما جاء في قوله: " فلما أشرفت على المنصورية واجهات المعز لدين الله صلوات الله عليه خارجاً لبعض ما كان يخرج إليه في موكب ضخم ، فنزلت وبادرت إليه للسلام عليه وهيأت كلاماً ، فما هو إلا أن قرئت منه وملأت عيني منه ، وملأت صدري هيبتة ، ورأيت جلال الإمامة في وجهه ، فوالله ما دريت ما أقول ولا عولت إلا على تقبيل الأرض " (86) ، نستنتج من هذا النص أن الهيبة التي وقعت في نفس النعمان حين لقاءه بالمعز لدين الله ألفت بظلالها على كتاباته فلا نتوقع منه أن يكتب إلا ما يرضي الإمام ويخدم السلطة.

حاول القاضي النعمان إضفاء هالة من القداسة على تصرفات الأئمة الفاطميين ، فطالما كرر عبارة "جده رسول الله" (87) خلف ذكره لهم ، وتجد ذلك واضحاً في حرصه في كل مرة على تشبيه المعز لدين الله مثلاً بـ "أجداده" رسول الله وآل البيت (88) ومنه ما ذكره عن ابن واسول (89) حاكم سجلماسة بعد أن أسره المعز فقال : " وسأل ابن واسول أن يصلي في الجامع صلاة الجمعة فأذن له أمير المؤمنين (صلع) اقتداءً بفعل جده علي (ص) إذ كان فيما يؤثر عنه أنه كان يدع من أراد شهود الجمعة من أهل السجن أن يأتوها ثم يعادون إلى السجن إذا قضيت الصلاة " (90)، وهو ما يعبر حسب رأينا عن رغبة النعمان في التأثير على عاطفة المغاربة لعلهم بتعلقهم الشديد بالرسول . ق . وبدينهم عموماً لأجل كسب ثقتهم ودعمهم.

كانت الصفة التي يحملها الأئمة والمتمثلة في كونهم مصدر السلطتين الدينية والزمنية في آن واحد تحتم عليهم إلى الإحاطة بكل شيء حولهم ، وأن يلقوا بالآراء الفلسفية والمذاهب الدينية التي كانت تملأ الأفق الإسلامي في عصرهم ، فاضطروا لأن يأخذوا بحظ وافر من الحياة العقلية المختلفة، كما كانوا مضطرين لأن يردوا على مخالفي مذهبهم طورا بالكتابة وطورا بالمجادلة والمناظرة الشفوية ، فكان ذلك سبباً أدى إلى سعيهم لإمتلاك أدوات دعاية لمشاريعهم وأفكارهم ولم يكن المتوفر آنذاك من هذه الأدوات أفضل الكتب ، لذلك جندوا نخبة من الفقهاء والمؤرخين لهذا الغرض مع حرصهم متابعتهم في أسلوبهم وألفاظهم ، وعرض آرائهم بأسلوب يخدم الدعوة ، والدعاية لها نثرًا وشعراً ، وهو ما يفسر لنا الطابع الإعلامي التبليغي الذي لا يكاد يفارق كتابات النعمان مثلاً (91).

ومن ملامح تأثير علاقة النعمان بالحكام الفاطميين على كتاباته أنه كان يراجع الحاكم الفاطمي المعز لدين الله في كل ما يكتبه ويعود إليه فيه حتى يأخذ رأيه بل وإذنه (91)، وقد صرح هو نفسه بذلك. " وطالعتة (عم) في جميع هذا مما أثرته عنه وسمعتة منه وأخذته عن رمزه ورأيت من فعله ، إذ رأيت أن ذلك لا ينبغي لي تقييده في الكتب و تخليده للأعقاب إلا بعد إذنه ، وعرضت عليه شيئاً منه فارتضاه وقال : من أخذ مثل هذا عنا بغبطة وقبول ، وعرف الفائدة فيه ، وشكر لنا النعمة لنا به ، نفعه الله بما يأخذه منه .. " (92) ، إذن فالنعمان لم يكن يكتب إلا ما يوافق له الإمام به ويرضيه خصوصاً إذا تعلق الأمر بما سيبقى للأجيال اللاحقة فصورة اللامعة الدولة الفاطمية يجب أن تنتقل كما يراد لها أن تكون عبر مؤرخين وإخباريين موثوقين يخضعون الماضي والحاضر لتوجهات السلطة .

اعتماداً على ما سبق ، يمكن القول بأن الفاطميين عملوا على احتضان الحياة الفكرية ، بما يوافق توجهات النخبة الحاكمة ، وفي الرافد التاريخي والفقهي اعتمدوا على تبني أعمال النعمان لأجل كسب مزيد من الشرعية والدعاية للدولة للتعمق أكثر في أوساط العامة وتثبيت أركان الدولة في محيط عدائي بامتياز. ثالثاً : حضور النزعة المذهبية في كتاباته : شكلت النزعات المذهبية على اختلافها واحدة من أهم أسباب التأثير على النصوص التاريخية والوقوع في الأخطاء سواء عن قصد أو دونه، لاسيما وأن المنتمي لمذهب معين والمتعصب له تكون غايته القصوى تفسير الحوادث وفق ما يتصور ويعتقد، ليعبر عن قناعاته ويبرر آراءه ويثبت صحتها لغيره.

وقد انتبه ابن خلدون التأثير الميولات المذهبية على الخبر التاريخي حيث اعتبرها أحد الأسباب المؤدية للكذب في الأخبار فقال: " ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه ، وإنما التشيعات للآراء والمذاهب ، .. وإذا خامرها

تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهله، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها من الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله" (93).

لا يتخلف الفكر التاريخي الإسماعيلي عن بقية المذاهب من ناحية التأثير بالنزعة المذهبية إذ أن قراءة متمعنة في النصوص التاريخية للنعمان تجعلك تشعر وكأن التاريخ "يسري وفق هوى إسماعيلي" (94)، وأن الإمام هو المتحكم بحركة التاريخ يسيرها كيفما شاء، بما يساير المذهب الإسماعيلي، فالإمام محور المذهب الإسماعيلي، ومحور العقيدة يدور حول شخصيته (95)، لذلك يمكن القول بأن القاضي النعمان يحوز على الفضل الأكبر في نشر الفكر المذهبي الإسماعيلي خاصة في الجانب الذي يتعلق بنشر الدعوة.

على هذا الأساس حاول القاضي النعمان أن يضيفي على الدعاة فضلا عن الأئمة هالة من القداسة، ويلقي عليهم صفات المهارة والحدق (96)، فقد أسر الداعي أبو عبد الله الشيعي قلوب الكتاميين إلى الحد الذي جعلهم يتنازعون ويختلفون حول مكان إقامته وضيافته، ولم يستقروا على رأي إلا بعد أن احتكموا إليه (97).

في سياق سرده لتفاصيل الدعوة الإسماعيلية وتحت التأثير المذهبي يسوق النعمان دلائل يقصد من وراءها إثبات صدق الدعوة (98)، حيث يبدأ حديثه في كتابه افتتاح الدعوة بذكر أخبار عن بن حوشب وما يحدث معه من وقائع وصدف كلها تؤشر على أنه رسول المهدي، فمثلا ينقطع شسع نعله عند صخرة فيجلس إليها ليصلحه فيجد عند القوم خبرا مفاده أن رسول المهدي ينقطع شسع نعله ويجلس إلى الصخرة (99)، ثم يدخل المسجد ويجلس فيخبره أحدهم أنه لا يستلقي بهذه الطريقة إلا رسول المهدي، جميع هذه الصدف وهذا التيسير يبرره النعمان بعلم الإمام، وكأن المتلقي للدعوة الإسماعيلية عليه أن يعي حين يقرأ تاريخها من خلال روايات النعمان، الكون كله رهن طوع الإمام وخاضع له، بما في ذلك الصدفة (100).

غير بعيد عما سبق يورد النعمان حادثة أخرى لابن حوشب جاء فيها: " فنظرت إلى الرجل قد ملأ عينيه مني وهملت دموعا، ثم قام إلى فجعل يقبل رأسي ويدي ورجلي ويقول يا سيدي رسول الله أرسلني إليك لتستنقذني وتأخذ بيدي فتخلصني، قلت كيف أيها الرجل؟ قال نعم كنت رجلا أرى في منامي رسول الله وآله في ليلة معروفة من كل عام، وكنت أتأهب لتلك الليلة ولا تخرم رؤياي فلما كان هذا العام لم أره، ومضت مدة فكنت في أكبر الغم من ذلك، فلما البارحة رأيته صلى الله عليه وعلى آله فجعلت أقول: يا رسول الله طال شوقي إلى رؤيتك، وقطعت عني ما عودتني من ذلك، قال فإني أبشرك وأخبرك أن داعي المهدي في بلدك وبين ظهراي قومك، فبادر إليه وخذ بحظك منه، قلت وكيف به يا رسول الله؟ قال أنت واجده غدا في كهف كذا وكذا. ذكر لي هذا الكهف. قلت إني أخاف أن أجد غيره، فوصف لي بصفتك وقال: مع هذا فاسأله عن كذا، وذكر لي المسائل، فان أجابك بكذا وذكر لي جوابك فهو صاحبك، قال أبو القاسم، فأدركتني خشية وعبرة وقلت: ما عني أن أقول لمن أرسله إلى رسول الله صلى الله عليه؟ فذاكرته وبسطت له، ثم أخذت عليه، وكان هذا الرجل معروفة باليمن ويذكر ذلك ويحدث به" (101).

حسب الباحث سليمان بن صديق فإن هذه الرواية تحديدا تحاول دفع المتلقي إلى التسليم بصدق رسالة المهدي، وأن نواميس الكون كلها اتفقت على أن تمهد الطريق لنجاح هذه الدعوة، وهي في الحقيقة ليست سوى توجيه من الإسماعيلية للتاريخ وأحداثه من أجل كسب أكبر عدد من المتعاطفين أولا، ومن أجل إضفاء هالة من القدسية على الإمام والدعاة ثانيا. (102).

عند انتصاها واجهت الدولة الفاطمية عدة محن ومصاعب لعل أهمها ثورات أهل المغرب عليها، على غرار ثورة ابن طالوت (103) التي باءت بالفشل بعد تضامن أهل طرابلس ضدها مع الفاطميين (104)، ثم ثورة صاحب الحمار التي أحدثت اختلالا في توازنات الدولة الفتية، لاسيما وأن الكثيرين من أهل السنة والخوارج قد التفوا حولها، لكنها خابت هي الأخرى وانهزمت على يد المنصور أما الملفت في الأمر هي طريقة سرد النعمان لأحداثها.

قدم النعمان أثناء روايته لأحداث ثورة ابن كيداد جملة مبررات لتصرفات الأئمة في محاولة منه للتأكيد على علمهم المسبق، كي لا يفقدوا هيبتهم أمام الأتباع، وليوجهوا العامة نحو الجهاد (105)، فالمهدي حينما بني المهدي وحصنها تنبأ بأحداث عصيبة ستأتي في ما بعد على رأسها ثورة ابن كيداد " وهذه هي الساعة التي كان المهدي يذكرها ويذكر أنه إنما أبتني المهدي من أجلها " (107)، ولما بدأت الثورة كان " القائم يخبر بأيامه ومدته ووقته ... حتى إذا رأى القائم أن وقت هلاكه قد أزف عهد إلى الأمام المنصور (ع م) وأمره بمحاربه فنهض إليه في قلة من العدد والأنصار، فانهزم عن سوسة واتبعه إلى القيروان، فتردد أياما ثم انهزم منها، وأتبعه المنصور (ع م) وقد ولى هاربا بين يديه ثم مات في الأسر وعجل الله به إلى جهنم " (108).

يحمل النص السابق شحنة مذهبية واضحة، فحسب ما ورد فيه فإن المهدي أقام المهدي خصيصا لمواجهة الثورة التي كان قد تنبأ بها، في حين أنه توجد مبررات أخرى تبدو أكثر منطقية وواقعية تفسر ذلك، مثل الحرص على الابتعاد عن التوترات والتحديات التي تواجه الدولة في حادثة عهدها خاصة وأن الوسط يحمل عدائية كبيرة لها، ومواجهة الخطر البيزنطي الخارجي المهدد لها (109).

إضافة إلى ذلك تعليقه لنجاح المنصور في القضاء على ثورة ابن كيداد بأن الساعة التي أخبر بها المهدي قد حلت، كما أنه قدر خسائر تلك الفتنة ماديا، ونلاحظ هنا بوضوح حرص النعمان على تبين الجانب العقدي لانتصار الفاطميين على أعدائهم، وعلى العناية الإلهية والتوفيق الرباني الذي يقف في صفهم في كل مرة.

يعتبر الفاطميون وجودهم في المغرب مؤقت إذ أنهم طالما حلموا بالعودة إلى المشرق، بل أنهم كانوا يحملون مشروعا للسيطرة على كامل العالم الإسلامي فاستقراهم في المغرب الإسلامي لم يكن سوى مرحلة من مراحل المشروع الإسماعيلي الكبير، و تتأيد هذه الرغبة في التوجه شرقا بما ورد في سيرة جعفر الحاحب على لسان الخليفة الفاطمي المهدي بالله أثناء خروجه من سلمية متوجها إلى إفريقية: "نملكن أنا وولدي ولد العباس ولندوسن خيولي بطونهم" (110)، وليست الحملات التي قام بها الخلفاء الفاطميون إلا تعبير واضح عن الرغبة الشديدة في التوجه نحو المشرق، والشاهد هنا هو سميح القاضي النعمان على نفس النهج في صياغة مبررات لأفعال الأئمة، فنجدته يفسر تخلفهم في القيام بحملات على المشرق، بالعلم المسبق للأئمة، هذا التخلف الذي أشار إليه المعزدين الله الفاطمي فيما بعد، و يبرره النعمان بلسان هذا الأخير إذ يقول: "انتظار المدة التي وعدنا الله الظهور فيها ولو حضرت ما تخلفنا عن أمر الله" (111).

وقد حاول القاضي النعمان أيضا إرجاع فشل الحملات الأولى على مصر إلى علم الأئمة المسبق، فالمهدي أن يعلم أنها أي مصر " لا تفتح على يديه " (112)، وقدت تسأل هنا كيف للمهدي أن يقوم بالحملة وهو يعلم فشلها مسبقا؟ ووجدت أن القاضي النعمان رد على ذلك بلسان المعز لدين الله بأن المهدي بالله قام بتلك الخطوة رغم علمه سلفا بأن حملاته لن تنجح: "للتأكيد حجة الله عليهم بدعوته، وألا يدع شيئا من المجهود إلا بلغ منه ما في نفسه" (113).

يمكن أن نستخلص مما سبق أن التأثير المذهبي قد نجى بالنعمان لمن جانب به الحياض في عدة مواضع، فقد أطلق أحكاما على أتباع مذهبه تختلف عن الآخرين الذين كملت لهم الاتهامات بأنواعها، بينما أتباع مذهبه غالبا فوق النقد، وافعالهم لها ما يبررها.

زيادة على ذلك وعلى الرغم من قيمة كتاباته التاريخية إلا أنها نتيجة التعصب الذهني فقد تضمنت العديد من المبالغات المتعلقة بالأئمة والمذهب الإسماعيلي، وكذا تنبؤات وخوارق يمكن إعتبارها أساطير تاريخية تم بموجبها تحويل القادة السياسيين والدينيين الفاطميين إلى كائنات خارقة تتجاوز رتبة البشر العاديين (114)، إضافة إلى الإسقاطات التاريخية التي يتعمدها في كثير من المواضع إذ يشبه الدعوة الإسماعيلية وتصرفات الأئمة بالسيرة النبوية وسير آل البيت، خاصة مع المعز لدين الله فلم يكتف بسرد ما رآه أو حكى له بل كان يربط في كل مرة كما سبقت الإشارة إلى ذلك ما حدث له من وقائع، وبين ما حدث لأبائه وأجداده من الأئمة، أو ما قالوه وفعلون.

كما كانت تعليقات النعمان على الحوادث تكشف توجهاته ، إذ يتدخل مبينا سروره وفرحه بالواقعة ، أو مبرزا استيائه وغضبه منها (115)، في حين كانت آراءه الشخصية تتفق دوما مع آراء الأئمة الفاطميين لاسيما المعز في كل ما نقله ورواه عنهم ، ولم يخالفهم أو يبدي رأيا مغايرا فيما تعلق بهم.

تأسيسا على ما تقدم فإنه يمكن القول بأن كتابات النعمان تمثل وجهة النظر الشيعية الإسماعيلية وعليه فقد كان يبرر الحوادث عبر زاوية رؤية مذهبية بل تبني غاية قصوى هي تمجيد مذهبه وإظهاره أئمة ودعاته وأتباعه بمظهر الزهد والتقوى ولصلاح ، وفي المقابل رمى خصومهم بالمجون والفساد والخلاعة في أحيان كثيرة.

وعليه فقد اعتبر أحد الباحثين أن أهم عيوبه في كتاباته هو مذهبه ، إذ دفعه إلى النزوع للانتصار للإسماعيلية ، وتلمس الشرعية التاريخية لها من خلال سرد التاريخ الفاطمي كما أريد له أن يكون ، ولكن بالمقابل يرى المؤرخ موسى لقبال أن مذهب النعمان ووقوعه تحت تأثير الأئمة ، وروايته عنهم ، لا ينقص من القيمة التاريخية والتوثيقية والعلمية لنصوصه (116).

الهوامش:

- 1- 'والدراسات الفكرية الإسماعيلية في الفترة الأخيرة، تشهد ثورة على حد تعبير فرهاد دفتري ، إذ أنشأت لهذا الغرض معاهد ، وانتظمت ندوات ، وأُنجزت بحوث أكاديمية جادة، وبدأت تتكشف المخطوطات السرية التي كان إلى عهد قريب ، لا يجوز الاطلاع عليها ، فكان ثمرة هذا الجهد إلى غاية 1988م ، إنجاز حوالي 1300 عنوان، منسوبة إلى أكثر من 300 مؤلف إسماعيلي ، قد تم تحديدها وتعريفها في الفهرست الإسماعيلي الضخم لبونوة . وقد تم نشر العديد من تلك النصوص في تحقیقات نقدية في حين تم إنتاج عدد وفير من الدراسات الثانوية ، في التاريخ والفكر الإسماعيليين ، من قبل ثلاثة أجيال متعاقبة من الدارسين الإسماعيليين ، أحمد ندات ، دور الحكام الفاطميين في الحياة الفكرية في المغرب 297-362هـ/909-972م) ، رسالة مقدمة النيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر 2، 2012، ص 3.
- 2- نشير هنا إلى أهمية التأريخ للحركات والفرق المذهبية من داخلها أي من أشخاص عاشوا أطوار تكوينها وتطورها ويعرفون تفاصيل كثيرة عن جماعتهم، كما لا يجب أن نغفل عن أهمية التأريخ لتلك الجماعات من خارجها حتى نقف على الحوادث من زوايا عديدة لنقترب أكثر من الحقيقة التاريخية بعيد عن التعصب المذهب والتأثير السياسي.
- 3- مفهوم الإسطوغرافيا: تحمل الكلمة معنيين: فهي تعني بالمعنى الضيق، مجموع نتائج الدارسين للكتابات التقليدية أي كل ما كتب وقيل في شؤون الماضي، وهذا المعنى يحيل إلى المضمون. أما بالمعنى الواسع فالكلمة تعني دراسة طرق البحث والاستقصاء، ويشير هذا المعنى إلى الشكل أو المنهج، أي إلى المظهر الخارجي.
- 4- علاوة عمارة، "إسماعيل سامعي الدولة الفاطمية وجهود القاضي النعمان في إرساء دعائم الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب العربي"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، قسنطينة كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الأمير عبد القادر، ع.12، سنة 2012، ص 532.
- 5- فرحات الدشراوي ، كيف صار القاضي النعمان فقيه الدولة الفاطمية ؟ ، أعمال ملتقى القاضي النعمان ، تونس ، منشورات الحياة الثقافية ، 1977، ص 209.
- 6- سلى محمود إسماعيل عبد الرازق، ابن حيون المغربي مؤرخا ، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، كلية الآداب ، قسم التاريخ، جامعة المنصورة ، 2008، ص 79
- 7- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، ج 5 بيروت، دار صادر ، ، 1971، ص 415، الكندي ، الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق روفن كست ، بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، 1908، ص 586، الذهب، المصدر السابق ، ج 16، ص 150 ، الزركلي ، المرجع السابق ، ص 41؛ ابن حجر ، رفع الأصر عن قضاة مصر ، تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ص 445 ؛ ابن حجر، لسان الميزان ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، ط.1 ، ج 8، بيروت ، مطبوعات المكتبة الإسلامية ، 2002 ، ص 286؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط ، ج 4، دمشق ، دار ابن كثير ، د.ت، ص 338؛ ونشير هنا إلى أن الخشني استبدل اسم "ابن حيون" بـ "ابن حيان"؛ مما أحدث لبسة بينه وبين المؤرخ الأندلسي "ابن حيان"، أنظر: الخشني، المصدر السابق، ص 223.

- 8- القاضي النعمان ، تأويل الدعائم ، تحقيق محمد حسن الأعظمي ، ج 1، مصر، دار المعارف ،، د.ت، ص 13، * القاضي النعمان ، تأويل الدعائم ، ص 13،
- 9- محمد الناصر صديقي ، " القاضي النعمان : المؤرخ الداعي "، منشورات مخبر البحث التاريخي في مصادر وتراجم)، عدد20 ، جوان 2013، 133 "
- 10- نسبة الى مدينة القيروان الكندي ، المصدر السابق ، ص 586: ابن العماد ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 11 الكاظمي، تكملة الرجال، تحقيق السيد صادق بحر العلوم، ط.1، ج2، النجف ، أنوار الهدى ، ، 1925، ص 563
- 12- ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج 5، ص 416، وسبب تسميته بالداعي لأنه كان يجلس لقراءة كتب الحكمة التأويلية ، أنظر: محمد كامل حسين ، أدب مصر الفاطمية ، القاهرة ، دار النهضة ، 1970 ، ص 66.
- 13- لم يرد سبب تسميته بهذا اللقب ، أنظر :ابن شهر آشوب ، معالم العلماء، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم ، النجف، المطبعة الحيدرية ، ، ص 1961، 126،
- 14- الكاظمي، المصدر السابق ، ج 2، ص 563
- 15- إسماعيل سامعي ، القاضي النعمان وجهوده في إرساء الخلافة الفاطمية والتطور الحضاري ببلاد المغرب القرن 10 / 4 م ، ط. 1، عمان ، مركز الكتاب الإلكتروني، 2000، ص 345.
- 16- القاضي النعمان ، المجالس والمعارف ، تحقيق الحبيب الفتى ، ابراهيم شيوخ ، محمد اليعلاوي ، ط.1، بيروت، دار المنتظر ،، 1996، ص 6.
- 17- بلقيس عيدان لويس الربيعي ، "حياة القاضي النعمان المغربي : الشخصية والعلمية والعملية ، الهدى ، عدد 04، أوت 2014، ص 31.
- 18- القاضي النعمان ، اختلاف أصول المذاهب ، تحقيق مصطفى غالب ، ط2، بيروت، دار الأندلس ، 1983 ، ص 09 .
- 19- القاضي النعمان ، المجالس والمساربات ، ص 07
- 20- سلى محمود إسماعيل ، المرجع السابق ، 79.
- 21- الزركلي، ج. 8، المرجع السابق ، ص 41 .
- 22- سلى محمود إسماعيل ، المرجع السابق ، ص 80
- 23- القاضي النعمان ، المجالس والمساربات ، ص 79 .
- 24- المصدر نفسه، ص 80.79
- 25- المصدر نفسه، ص 80.
- 26- إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 60 .
- 27- القاضي النعمان ، المجالس والمساربات ، ص 79،
- 28- اسماعيل سامعي ، المرجع السابق ، ص . 64
- 29- القاضي النعمان ، المجالس والمساربات ، ص 79.
- 30- المصدر نفسه ، ص 80 .
- 31- الأحيدر محمد عبد الله الكربلائي ، المشرع الاسماعيلي أبو حنيفة القاضي النعمان القيرواني المغربي 363هـ/973م عصره - دوره في الدولة الفاطمية - كتبه ومؤلفاته ، ماجستير في التاريخ الإسلامي (غير منشورة) قسم التاريخ ، جامعة بغداد، 2007، ص 83 .
- 32- القاضي النعمان ، المجالس والمساربات ، 127.
- 33- فرهاد دفتري ، الاسماعيليون في العصر الوسيط، ط1، دار الساقى ، بيروت ، 2008، ص 127 .
- 34- القاضي النعمان ، المجالس والمساربات ، ص 81 .
- 35- المصدر نفسه ، ص 79
- 36- سميت نسبة الى بانها المنصور بالله سنة 337 هـ / 948 م وهي مدينة متصلة بالقيروان ، أنظر : باقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج 3، ص 391.
- 37- النعمان ، المجالس والمساربات ، ص 348.51
38. ان بلقيس عيدان لويس الربيعي ، المرجع السابق ، ص 32.
- 39- د اسماعيل سامعي ، المرجع السابق ، ص 336 .
- 40- ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج 5، 417.

- 41- ناصر صديقي، المرجع السابق، ص 134.
- 42- المرجع نفسه، ص 137،
- 43- غنية ياسر كياشي، المكونات الثقافية في الدولة الفاطمية (297- 567/909 -1171م)، رسالة دكتوراه (غير منشورة، جامعة بغداد، 2007، ص 315.
- 44- القاضي النعمان ، المجالس و المسابير، ص 81.80.
- 45- المصدر نفسه ، ص 63
- 46- ناصر صديقي، المرجع السابق، ص 139.
- 47- المرجع نفسه ، ص 140 48
- 48- علاوة عمارة ، المرجع السابق ، ص 148،
- 49- المرجع نفسه ، ص 87
- 50- المرجع نفسه، ص 87
- 51- ناصر صديقي ، المرجع السابق ، ص 133.
- 52- ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج 1 ، ص 172 . أحمد ندات، المرجع السابق ، ص 144 ، طيفوري قدور ، المرجع السابق ، ص ، ص 88
- 53- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة ، المصدر السابق ، ص 5.3.
- 54- طيفوري قدور، الفكر التاريخي الإسماعيلي في بلاد المغرب الإسلامي ، مذكرة مقدمة للسجل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط (غير منشورة) ، قسم التاريخ جامعة غرداية ، 2015 ، ص 89 .90.
- 55- المرجع نفسه ، ص 90 .
- 56- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 117 ،
- 57- طيفوري قدور ، المرجع السابق ، ص 95
- 58- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 157.
- 59- مدينة عظيمة بفلسطين ، وهي في الإقليم الثالث، طولها خمس وخمسون درجة وثلاثان ، وقد نسب إليها قوم من أهل العلم ، أنظر:ياقوت الحموي،
- 60- القاضي النعمان، شرح الأخبار، المصدر السابق ، ج 3، ص 69
- 61- النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 159.
- 62- المصدر نفسه ، ص 154.
- 63- المصدر نفسه ، ص 243..
- 64- المصدر نفسه ، ص 246.
- 65- محمد بن عمر ابن يحيى بن عبد الأعلى المروزي، من جند خراسان ، ولي أبو عبد الله على قضاء مدينة القيروان ، يوم الخميس لأثنتا عشرة ليلة بقيت من شعبان ، أنظر: ابن عذاري ، البيان المغرب ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 63،
- 66- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 247.
- 67- المصدر نفسه ، ص 252.
- 68- المصدر نفسه ، ص 287.
- 69- المصدر نفسه ، ص 303.
- 70- طيفوري قدور ، المرجع السابق ، ص 150.
- 71- القاضي النعمان ، المجالس والمسابير ، ص 49.
- 72- وداد القاضي ، القاضي النعمان ومؤلفاته، ملتقى القاضي النعمان، المهدية، 1975 ، وزارة الثقافة التونسية ، تونس، 1977، ص 146.
- 73- هو السيد الإمام ، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي ، العلوي الفاطمي ، المدني ، ولد زين العابدين ، ولد سنة ست وخمسين ، كان أو إماما ، مجتهدا ، تاليا لكتاب الله ، كبير الشأن ، مات سنة أربع عشرة ومائة بالمدينة . أنظر : الذهبي ، المصدر السابق ، ج 4، ص 409.402
- 74- القاضي النعمان ، شرح الأخبار، ج 3، ص 278.

- 75- المصدر نفسه، ج 3، ص 364.
- 76 - القاضي النعمان ، شرح الأخبار ، ج 3 ، ص 377.
- 77- القاضي النعمان ، المجالس والمسائرات ، 210.
- 78- القاضي النعمان ، المناقب والمثالب، ص 301.
- 79- ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، الملك أبو عبد الملك القرشي الأموي ، مولده بمكة ، استولى على الشام ومصر تسعة أشهر ، ومات خنقا من أول رمضان سنة خمس وستين ، أنظر: الذهبي ، المصدر السابق ، ج 3، ص 476 .
- 80- القاضي النعمان ، المناقب ولتالب، ص 301.
- 81- عبد الملك بن مروان ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية الخليفة الفقيه أبو الوليد الأموي ولد سنة ست وعشرين، توفي في شوال سنة ست وثمانين عن نيف وستين سنة، أنظر: الذهبي ، المصدر السابق ، ج 4، ص 433
- 82- القاضي النعمان ، المناقب والمثالب، ص 323.
- 83- القاضي النعمان ، المجالس والمسائرات ، ص 497
- 84- المصدر نفسه ، ص 497
- 85- المصدر نفسه ، ص 51
- 86- المصدر نفسه ، ص 52.
- 87- القاضي النعمان ، شرح الأخبار، ج3، ص 120، 167، 368.
- 88- الأيسري أحمد عبد الله زيدان ، المرجع السابق ، ص 52.
- 89- ابن وامول جده الأعلى أبو القاسم سمعون بن واسول المكناسي من أسس دولة بني مدرار في سجلماسة توفي سنة 168هـ/748م وهم ينتمون الى الخوارج الصفرية وقد توالى بعده ابناؤه الى ان قضى الفاطميون على دولتهم ، أنظر: ابن عذاري، المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 156. 157.
- 90- القاضي النعمان ، المجالس و المسائرات ، ، ص 434 .
- 91- أحمد ندات ، المرجع السابق ، ص 164.
- 92- القاضي النعمان ، شرح الأخبار، ج 1 ، 82.
- 93- القاضي النعمان ، المجالس والمسائرات ، ص 297 .
- 94- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، ط. 2 ، بيت الفنون والعلوم والآداب ، مصر ، 2005، ص 51.
- 95- سليمان بن صديق ، أثر الحركات المذهبية في الكتابة التاريخية في بلاد المغرب بين القرنين 3 و4هـ/9 و10 م ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عمار ثليجي غرداية ، 2015 ، ص 110.
- 96- مجتبى السادة ، رؤي مهدوية . شذرات فكرية في القضية المهدوية، ط1 ، السعودية ، أطراف للنشر والتوزيع، ص 44 .
- 98- أحمد ندات ، المرجع السابق ، ص 111 .
- 99- مومي لقبال ، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 ، ص 240.
- 100- سليمان بن الصديق ، المرجع السابق ، ص 112.
- 101- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ،، ص 47.
- 102- سليمان بن الصديق ، المرجع السابق ، ص 112.
- 103- ينتهي نسبه إلى قريش، وكان من بعض كتاب العراق ، قدم إلى طرابلس وادعى أنه المهدي فقاتله أهلها وهزموه ثم قتلوه ، وجاؤوا برأسه إلى القائم، أنظر: القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 332.
- 104- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 53.52 - سليمان بن الصديق ، المرجع السابق ، ص 112.
- 105 - بوبة مجاني ، المذهب الإسماعيلي وفلسفته في حكم بلاد المغرب ، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، 2005 ، ص 10.
- 106- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 333.
- 107- المصدر السابق ، ص 334.333.
- 108- أيمن فؤاد السيد، الدولة الفاطمية تفسير جديد ، ص 125
- 109- بوبة مجاني ، المرجع السابق ، ص 11-12 .

- 110- إيفانوف، مذكرات في حركة المهدي الفاطمي ، سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية، المجلد 4، ج2، ديسمبر 1936، ص 112.
- 112- النعمان ، المجالس والمساربات ، ص 476. المصدر نفسه ، ص . 477.
- 113- المصدر السابق ، ص 476 .
- 114- محمد الهادي الطاهري ، عقائد الباطنية في الإمامة والفقه والتأويل عند القاضي النعمان ، ط.1، بيروت ، دار الإنتشار العربي ، 2011، ص 142 .
- 115- المرجع نفسه ، ص 143.
- 116- طيفوري قدور ، المرجع السابق ، ص 150.
- 117 المرجع السابق ، ص 17.